

سِلْسَلَةٌ: «حِكَايَاتٌ مِنْ جِبَالِنَا»

دَجَاجَاتُ أُمِّ يَوْسُفَ

د. ربيعة أبي فاضل



مَكْتَبَةُ سَمِير

ظهر منها حتّى الآن :

- الثعالب

- الثعلب والغراب

- دجاجات أم يوسف

- ديك أم مسعود



سِلْسَلَةُ: «حِكَايَاتُ مِنْ جِبَالِنَا»

دَجَاجَاتُ أُمِّ يَوْسُفَ

د. ربيعة أبي فاضل

مَكْتَبَةُ سَمِير

تُرَبِّي جَارَتُنَا أُمَّ يَوْسُفَ الدَّجَاجَ لِأَنَّهَا لَا
تَأْكُلُ، مَعَ عَائِلَتِهَا، سِوَى الْبَيْضِ الْبَلَدِيِّ
وَالْفِرَاحِ الطَّبِيعِيِّ، فَدَجَاجَاتُهَا تُحِبُّ الْحُرِّيَّةَ
وَتَنَمُو فِيهَا.



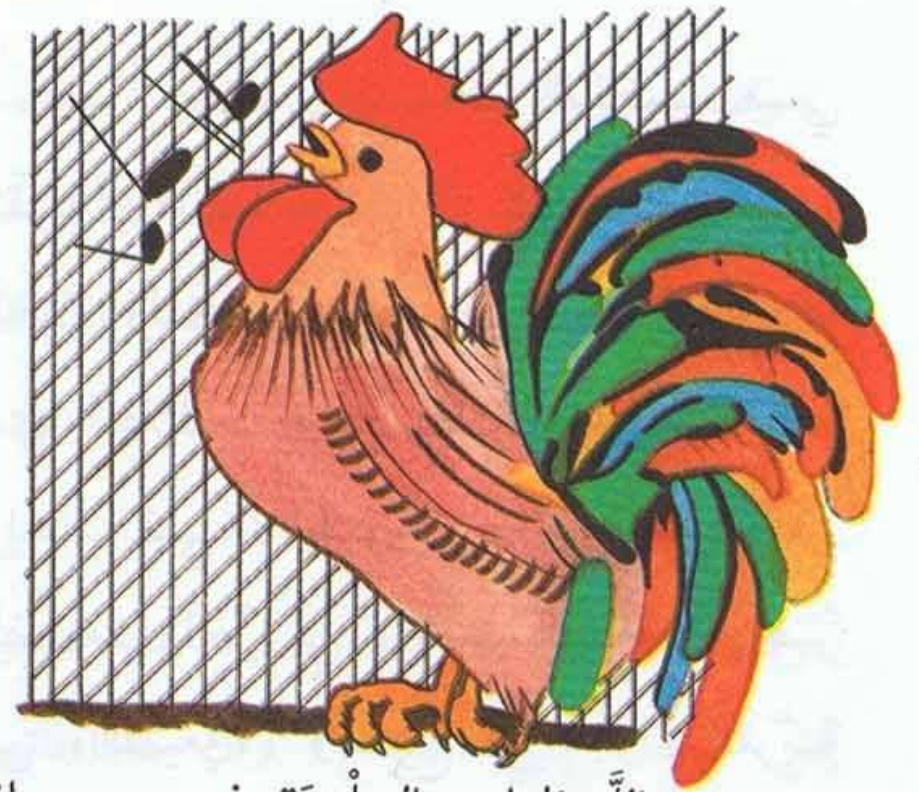
وَكُلَّمَا طَالَ بَقَاؤُهَا فِي الْقُنِّ لِسَبَبِ
طَارِيءٍ، تَغْضَبُ وَتَنْشُرُ مَنَاقِيرَهَا عَلَى مَدَى
شَرِيطَةِ مُثِيرَةٍ حَمَاسَةِ الدَّيْكَةِ كَيْ تَصِيحَ.



وَصِيَا حُ دِيكَةِ أُمِّ يَوْسُفَ لَا يَهْدَأُ، فَثَمَّةُ
دِيكُ يَصِيحُ فِي الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ لَيْلًا، لَا
يَتَأَخَّرُ عَنِ الْمَوْعِدِ لَحْظَةً، وَتَنْطَلِقُ الدِّيَكَةُ
كُلُّهَا قُبَيْلَ الْفَجْرِ لِتُنَادِيَ الْحُرِّيَّةَ لَهَا
وَلِلدَّجَاجَاتِ. وَمِنْ أَسْرَارِ الْقَرْيَةِ الَّتِي
يَعْرِفُهَا جِيرَانُ أُمِّ يَوْسُفَ أَنَّ دِيكَتَهَا تَسْبِقُ
كُلَّ الدِّيَكَةِ إِلَى الصِّيَا حُ، وَأَنَّ دَجَاجَتِهَا
تَبْدَأُ حِوَارَهَا وَقَوْعَاءَهَا وَمَعَارِكَهَا قَبْلَ
دَجَاجِ الْقَرْيَةِ. وَتَعْنِفُ الْمَعَارِكُ عِنْدَ الْفَجْرِ
حِينَ تَلْمَحُ ظِلُّ أُمِّ يَوْسُفَ قَادِمًا، وَفِي
يَدِهَا طَعَامٌ أَوْ مَاءٌ أَوْ أَمْلٌ جَمِيلٌ.

وَمَا أَجْمَلَ نَغَمَاتِ الدِّيَكَةِ فِي
الْقَرْيَةِ! كَأَنَّهَا صَلَوَاتُ شُكْرِ لِاسْتِمْرَارِ
الْحَيَاةِ وَلِفَجْرِ جَدِيدٍ يُطِلُّ مِنْ وَجْهِ اللَّهِ
ذِي الْجَلَالِ. يَصِيحُ دِيكُ جَارَتِنَا فَيْلِيهِ
وَاحِدٌ فِي «الْجَوْرَةِ» وَآخَرُ فِي رَأْسِ
الضَّيْعَةِ، وَآخَرُ فِي «كَعْبِ الضَّيْعَةِ» وَآخَرُ
فِي «الضَّيْعَةِ»، وَتَمْتَزِجُ فِي أَجْوَاءِ الْقَرْيَةِ
صِيَا حَاتُ الدِّيَكَةِ بِزُقُزَقَاتِ الْعَصَافِيرِ
وَبِأَصْوَاتِ الْفَلَاحِينَ مُعْلِنَةً قِيَامَةَ النَّهَارِ.
وَقَدْ لَاحَظْنَا مِنْذُ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَنَّ دِيكًا فِي
الْحَيِّ صَمَتَ وَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ. وَسَأَلْنَا
عَنْهُ، فَقِيلَ إِنَّهُ مَاتَ حُزْنًا عَلَى دَجَاجَةٍ
ذُبِحَتْ لِأَنَّهَا لَا تَبْيِضُ!

وَتَرَفَّعَ عَيْنُهَا إِلَى الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ! وَإِنَّ
قِسْمًا مِنَ الدَّجَاجِ، يَبْيِضُ فِي زَوَايَا
الْجَلَالِي، حَيْثُ يَتَذَوَّقُ طَعْمَ الْحُرِّيَّةِ.
وَكَانَ عَلَى أُمِّ يُوسُفَ أَنْ تَبْحَثَ، وَهِيَ
تَحْتَجُّ، عَنْ بَيْضِ هُنَا وَهُنَاكَ. وَكَانَ



وَمِنَ اللَّحْظَاتِ الْحُلُوةِ فِي حَيَاةِ
الدَّجَاجَاتِ حِينَ تُقَرِّرُ أُمُّ يُوسُفَ فَتَحَ
بَابَ الْقُنِّ لِتَنْطَلِقَ دَجَاجَاتُهَا، عَبْرَ
الْجَلَالِي، تَخْتَارُ مَا يَحْلُو لَهَا مِنْ ثَمَارِ
وَعُشْبٍ وَحَشَرَاتٍ، تُحَرِّكُ التُّرَابَ
وَالْحَجَرَ، تَحْتَ الشَّجَرِ، تَشْرَبُ الْمَاءَ

عَلَيْهَا أَيْضًا أَنْ تَطْرُدَ عَصَافِيرَ الدُّورِيِّ مِنْ
أَمَامِ الْمِصْطَبَةِ إِذْ تُنَافِسُ الدَّجَاجَاتِ عَلَى
الْقَمَحِ وَالزُّؤَانِ ، وَتَأْتِي بِالْعَشَرَاتِ تَأْكُلُ
وَتَلْعَبُ وَتَرْحَلُ .

وَالْمَنْظَرُ الَّذِي يَجْذِبُ الْأَعْمَى حَوْلَ
بَيْتِ أُمِّ يُوسُفَ هُوَ تِلْكَ الدَّجَاجَةُ الَّتِي
كَسَرَتْ رِجْلَهَا ، فَبَاتَتْ عَاجِزَةً عَنْ
الْإِنْطِلَاقِ ، لَا تَقْفِزُ وَلَا تَتَذَوَّقُ مَا تَشَاءُ
مِنْ كُنُوزِ التُّرْبَةِ وَالنَّبَاتِ . تَرَكَتْهَا
الدَّجَاجَاتُ سِوَى وَاحِدَةٍ يَحْرُسُهَا دِيكٌ
أَحْمَرٌ . وَتَأْتِي تِلْكَ الدَّجَاجَةُ الْمُخْلِصَةُ
بِحُبُوبٍ وَبِبَقَايَا طَعَامٍ وَتَرْمِيهَا أَمَامَ
الدَّجَاجَةِ « الْمُعَاقَةِ » ، فَتَأْكُلُ هَذِهِ بِرَغْبَةٍ .

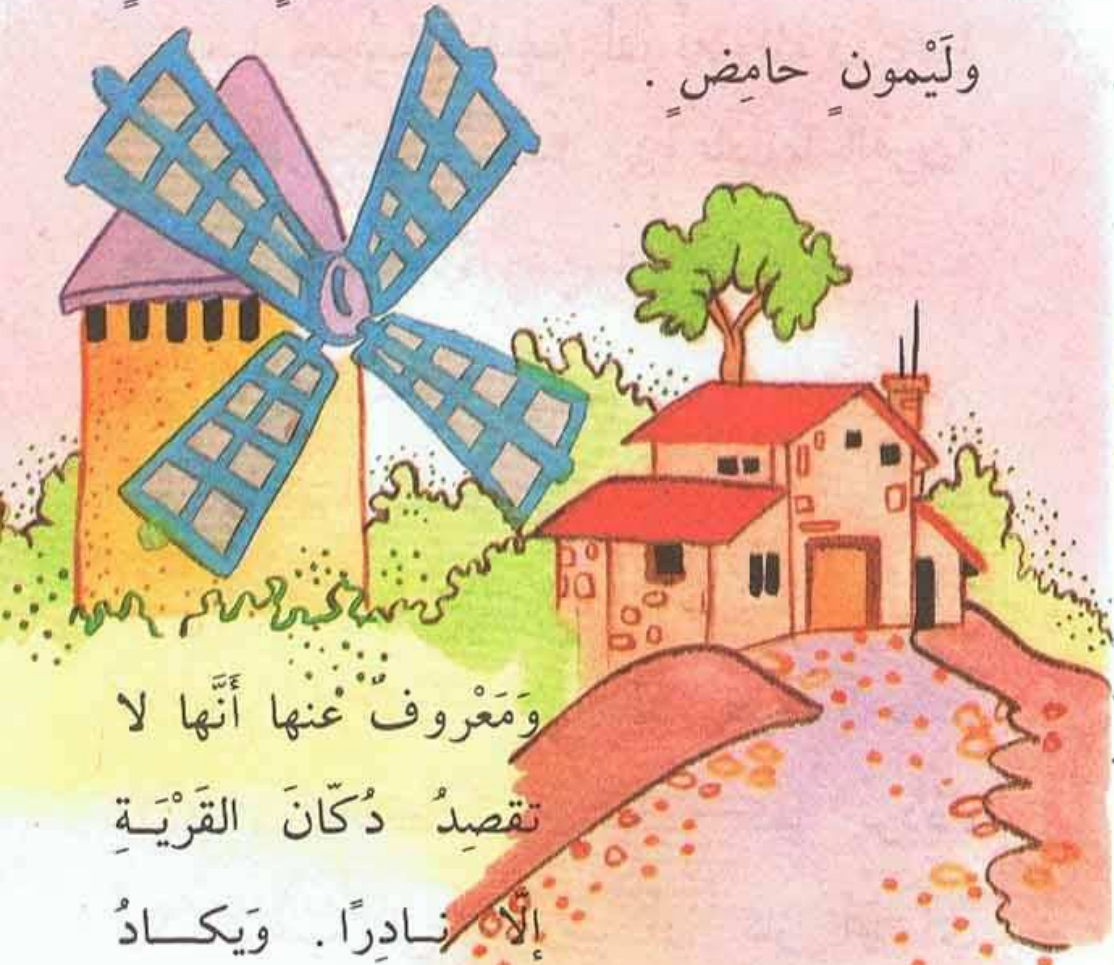
وَلَمْ يُقَصِّرِ الدِّيكُ عَنِ الْمُسَاعَدَةِ ، فَهُوَ
حَالٌ دُونَ اقْتِرَابِ آيَةِ دَجَاجَةٍ . وَلَا
تَسْتَطِيعُ وَاحِدَةٌ عَصِيَانِ إِرَادَتِهِ . يُحَرِّكُ
جَنَاحَيْهِ وَيُخْرِجُ عَيْنَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ وَيَشْمُخُ
بِرَأْسِهِ شَمْخَةً تَكَادُ تَفْصِلُ رَأْسَهُ عَنْ
جِسْمِهِ ، ثُمَّ يَتَأَمَّلُ حَوْلَهُ فَلَا يَرَى أَثَرًا
لِلدَّجَاجَاتِ . وَخَذَهَا صَدِيقَتُهُ ، الَّتِي أَحَبَّهَا
وَأَحَبَّتَهُ تُسَاعِدُ جَارَتَهَا ، وَهُوَ يَحْمِيهِمَا
وَيَحْنُو عَلَيْهِمَا .

وَلِحُرِّيَّةِ الدَّجَاجَاتِ حُدُودٌ فِي نَظَرِ أُمِّ
يُوسُفَ، فَلَا يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَعْبَثَ
بِالْمَزْرُوعَاتِ الْقَلِيلَةِ تَحْتَ الْبَيْتِ. الدُّنْيَا



غَلَاءٌ، كَمَا تَقُولُ جَارَتُنَا، وَهِيَ تَزْرَعُ
لِتَقْتَصِدَ. أَلَمْ يُعَلِّمَهَا أَبُوهَا أَنَّ أَوَّلَ كُلِّ
عَرَشٍ قِرْشٌ! سُبْحَانَ اللَّهِ! تُحِبُّ أُمُّ
يُوسُفَ الْأَرْضَ حُبًّا عَجِيبًا! تَحْسِبُهَا،
وَأَنْتَ تَرَاهَا حَوْلَ بَيْتِهَا، شَجَرَةً خَضِرَاءَ

تَتَحَرَّكُ، تُقْبِلُ الْأَغْصَانِ، تُنْقِذُ النَّبْتَ
الْعَطْشَانَ، تَقْطِفُ مَا تَطَالُ يَدُهَا مِنْ
لُوبِيَاءَ وَبَبْدُورَةٍ وَفَاصُولِيَا وَعَنْبٍ وَتِينٍ
وَلَيْمُونٍ حَامِضٍ.



وَمَعْرُوفٌ عَنْهَا أَنَّهَا لَا
تَقْصِدُ دُكَّانَ الْقَرْيَةِ
إِلَّا نَادِرًا. وَيَكَادُ
يَكُونُ بَيْتُهَا الصَّغِيرُ،

الغارقُ بينَ الشَّجرِ والعاشقُ للقمرِ، دولةٌ
مُسْتَقِلَّةٌ حُرَّةٌ قَوِيَّةٌ تَجِبُهُ زَمَانُ الْحَرْبِ
وَالسَّلَامِ مَعًا.

وما يُعْجِبُكَ فِيهَا أَنَّ أَمْوَالَ زَوْجِهَا
وَأَوْلَادِهَا لَمْ تُغَيَّرْ شَيْئًا مِنْ عَادَاتِهَا الْقَرْوِيَّةِ
وَمِنْ طَبْعِهَا الْعَفْوِيِّ.

فَهِيَ فِي مَمْلَكَتِهَا وَهُمْ فِي مَمْلَكَتِهِمْ.
هُمْ وَاجَهُوا الْحَرْبَ بِالتَّجَارَةِ وَالْهَجْرَةِ،
وَهِيَ وَاجَهَتْهَا بِالزَّرْعِ وَالضَّرْعِ وَتَرْبِيَةِ
الدَّجَاجِ. وَأَكْثَرُ مَا تُشَدِّدُ عَلَيْهِ الْحَطَبُ
لِلشَّتَاءِ، فَالْحَطَبُ صِحِّيٌّ، كَمَا تُرَدِّدُ،
وَلَا تَرْغَبُ فِي مَزَوْتٍ أَوْ كَازٍ أَوْ أَيِّ

ضَاغُوطٍ آخِرًا! إِنَّهَا تَهْلِلُ لِمَشْهَدِ الزُّنُودِ
تَحْمِلُ الْبَلَطَاتِ وَتَهْوِي بِعُنْفٍ عَلَى جُذُوعِ
الشَّجَرِ، مِنْ خُرُنُوبٍ وَبَلُّوطٍ وَسَنْدِيَانٍ
وَيَرْزٍ وَغَيْرِهِ، وَتَرْوَحُ تَشْقَعُ مَا تَيْسَّرُ
مِنْ قِطْعِهَا فِي الْقَبْرِ الْعَتِيقِ حَيْثُ
يَسْتَرِيحُ صَاحُ الْعَافِيَةِ وَتَغْفُو قُرْبُهُ أَيَّامُ
الْبَرَاءَةِ وَالنَّخْوَةِ!

كُلُّ الْجَارَاتِ يُحِبُّنَ أُمَّ يُوسُفَ لِأَنَّهَا
لَا تَحْقِدُ وَلَا تَنِمُّ، فَلِسَانُهَا دَافِيٌّ وَهَمَّتُّهَا
عَظِيمَةٌ. وَهِيَ ذَاتُ صَوْتٍ جَمِيلٍ يَسْلُبُ
النَّاسَ قُلُوبَهُمْ وَخُصُوصًا فِي سَهَرَاتِ
الْحُزْنِ. تَحْفَظُ الْأَشْعَارَ. تَنْدُبُ كَمَا
الْحَمَامُ الْبَاكِي. لِأُمِّ يُوسُفَ فَضْلٌ عَلَى

مِنْ فَمِ السَّبْعِ ، وَهِيَ مَوْصُوفَةٌ بِشِدَّةِ
 الْحَذَرِ وَبِالْإِتِّصَارِ عَلَى الْقَدَرِ ، ظَلَّ ثَعْلَبٌ
 ذَكِيٌّ يُرَاقِبُهَا وَيُرَاقِبُهَا وَيُرَاقِبُهَا حَتَّى خَانَتْهَا
 الذَّاكِرَةُ يَوْمًا ، وَتَرَكْتُ بَابَ الْقُنِّ
 مُتَحَرِّرًا مِنْ قِفْلِهِ . وَكَأَذَاكَ الثَّعْلَبُ
 يَقْضِي عَلَى كُلِّ الدَّجَاجَاتِ خَنْقًا لَوْلَا
 مَجِيءُ أَبْنَاهَا لَيْلًا وَسَمَاعُهُ حَرَكَةً غَرِيبَةً
 تَحْتَ الْبَيْتِ .



الْأَحْيَاءِ لِأَنَّهَا تُحِبُّهُمْ وَفَضَّلَ عَلَى
 الْأَمْوَاتِ لِأَنَّهَا تُودِّعُهُمْ وَتَتَمَنَّى لِأَرْوَاحِهِمْ
 الْهُدُوءَ . فَلَوْ قُدِّرَ لِأَمْوَاتِ الْقَرْيَةِ أَنْ
 يَقُومُوا لَشَكَرُوهَا عَلَى حَرَارَةِ عَاطِفَتِهَا فِي
 زَمَنِ تَلَاشَتْ فِيهِ الْعَوَاطِفُ !

عَلَى أَنَّ جَارَتَنَا حَاقِدَةٌ جِدًّا ، هَذِهِ
 الْأَيَّامَ عَلَى الثَّعَالِبِ . فَمَعَ أَنَّهَا تَشِيلُ اللَّقْمَةَ



ثَلَاثُ دَجَاجَاتٍ مِنْ نَصِيبِ الثَّعْلَبِ
وَمَا تَبَقَّى مِنْهَا لَهُ عُمُرٌ جَدِيدٌ. وَأَغْلَقَ
ابْنُهَا بَابَ الْقُنِّ وَنَامَ مِنْ دُونِ أَنْ يُزْعِجَ
أُمُّهُ بِخَبْرِ غَيْرِ سَارٍّ.

وَفِي فَجْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، حَلَفَتْ أُمُّ
يُوسُفَ بِكُلِّ الْقَدِيسِينَ أَنَّهَا لَا تَأْكُلُ وَلَا
تَشْرَبُ حَتَّى تَنْتَقِمَ مِنَ الثَّعْلَبِ اللَّئِيمِ
بِفَصْلِ عَظْمِهِ عَنْ لَحْمِهِ! وَلَا عَجَبَ،
فَهِيَ تَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَنَّ أَبَاهَا فَسَخَ كَلْبًا يَوْمَ
كَانَ شَابًّا. هَجَمَ عَلَيْهِ الْكَلْبُ يَرِيدُ عَضَّهُ
وَقَتْلَهُ، فَقَبَضَ عَلَى فَكِّهِ بِيَدَيْهِ
الْحَدِيدَتَيْنِ وَظَلَّ يَشُدُّ وَيَشُدُّ حَتَّى تَحَوَّلَ
الْكَلْبُ قِطْعَتَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ، رَمَاهُمَا

مَاسِحًا الْعَرَقَ عَنْ جَبْهَتِهِ، مُتَابِعًا طَرِيقَهُ
إِلَى الْحَقْلِ. كَانَ جِيلُ أَبِيهَا شُجَاعًا لَا
يَهَابُ الْوَحْشَ، يُحَطِّمُ الصَّخَرَ وَيَطْحَنُهُ
بَأَصَابِعِهِ. وَفِي عَيْنِي أُمُّ يُوسُفَ الْكَثِيرُ مِنْ
فُرُوسِيَّةِ أَبِيهَا.

وَحَدَّثَ أَنْ اتَّصَلَ بِأُمِّ يُوسُفَ ابْنُهَا
وَابْنَتُهَا مِنْ أَمِيرِكَا يَطْلُبَانِ مِنْهَا السَّفَرَ،
فَسُعَادُ ابْنَتُهَا سَتَّضَعُ طِفْلًا فِي الشَّهْرِ
الْمُقْبِلِ، وَيُوسُفُ ابْنُهَا الَّذِي سَافَرَ مِنْذُ
عَشْرِ سِنِينَ أَشْتَاقَ إِلَى وَجْهِهَا وَإِلَى
رَائِحَةِ يَدَيْهَا.

عَاشَتْ أُمُّ يُوسُفَ أُسْبُوعًا وَهِيَ فِي
حَيْرَةٍ وَتَرْجُّحٍ. هَلْ تُسَافِرُ وَرَاءَ الْبَحَارِ،



وَقَرَّرْتُ أَنْ تُسَافِرَ
فِي الْأَوَّلِ مِنْ أَيْلُولَ،
فَأَحْضَرْتُ السَّعْتَرِ
وَالْكِشْكَ وَالْجُبْنَ الْبَلَدِيَّ
وَالْتِّينَ الْمَطْبُوخَ وَالزَّيْبَ
وَالْعِنَبَ وَحَبَّ الصَّنَوْبَرِ.

وَأَشْرَتِ الْبَقْلَاوَةَ وَالْبَزُورَاتِ.
وَقَطَفْتُ بَعْضَ الزَّيْتُونِ الَّذِي
ظَلَّ عَابِسًا بِسَبَبِ قِلَّةِ الْمَطَرِ،
فَالْمَطَرُ وَخَدَهُ يُنْعِشُ الزَّيْتُونُ



وَهِيَ قَضَتْ حَيَاتَهَا كُلَّهَا فِي الْقَرْيَةِ لَا
تَعْرِفُ سِوَى طَرِيقِ الْعَيْنِ وَلَا تَسْتَحْسِنُ
سِوَى رُؤْيَةِ الْوَادِي وَصَنْوَبَرِهِ وَكُرومِهِ
وَفَاكِهَتِهِ وَمِيَاهِهِ؟ هَلْ تَتْرَكُ الدَّجَاجَةَ
السُّودَاءَ الَّتِي رَبَطْتُهَا وَأَطْعَمْتُهَا الْحَبَّةَ تَلَوَّ
الْأُخْرَى، بَعْدَ فَتْحِ مِيقَارِهَا، لِأَنَّ
قَابِلِيَّتَهَا قَلِيلَةٌ وَرُوحَهَا عَلِيلَةٌ؟

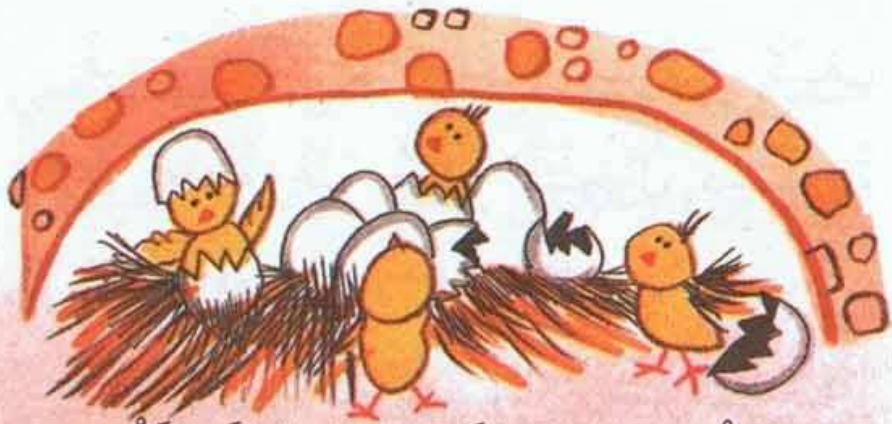
وَيُفْرِحُهُ. وَلَمْ تَنْسَ اللَّوزَ الْأَخْضَرَ
وَمُرَبَّيَاتِ الْخَوْخِ وَالْجَوْزِ وَالصُّبَّارِ وَغَيْرَ
ذَلِكَ مِنْ ثَمَارِ لَبْنَانَ الشَّهِيَّةِ.

وَصَبَاحَ سَفَرِهَا، بَكَتْ أُمُّ يُوسُفَ
دَمْعَةً حُزْنٍ عَلَى هَجْرِ الْبَيْتِ وَالْأَرْضِ
لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، وَدَمْعَةً فَرَحٍ وَشَوْقٍ فِي
أَنْتِظَارِ ضَمِّ وَلَدَيْهَا الْمَسَافِرَيْنِ. وَلَوْ كَانَ
لِلْعَرِيشَةِ أَمَامَ الْبَابِ يَدٌ لَضَمَّتْهَا إِلَى
صَدْرِهَا مُودَّعَةً، وَلَوْ كَانَ لِلْخُرْنُوبَةِ فَمٌّ
لَقَالَتْ لَهَا: «مَعَ السَّلَامَةِ!» وَقَبْلَ أَنْ
تَنْقُلَهَا السَّيَّارَةُ إِلَى السَّاحْلِ لِتَطِيرَ مِنْ
بَيْرُوتَ أَوْصَتْ أَبْنَتَهَا: «إِنْ تَبَهَّى إِلَى الْقِرْقَةِ
وَالِى الدَّجَاجَاتِ. أَطْعِمِهَا جَيِّدًا وَلَا
تُهْمِلِي الْبَيْتَ!»

وَالِاهْتِمَامُ بِالْقِرْقَةِ فَنَّ مِنْ فُنُونِ أُمِّ
يُوسُفَ، فَهِيَ تُتَقِنُ تَرْبِيَةَ الدَّجَاجِ وَتُحِبُّ
خُصُوصًا الصَّيَّصَانَ، فَتُدْفِئُهَا وَتُغْذِّيُهَا وَلَا
تَطْرُدُهَا حِينَ تَدْخُلُ غُرْفَتَهَا، بَلْ تُدَاعِبُهَا
كَمَا دَاعَبَتْ أَطْفَالَهَا. وَصَدَفَ أَنْ قَرَقَتْ
الدَّجَاجَةُ الرَّصَاصِيَّةُ قَبْلَ يَوْمَيْنِ مِنْ
رَحِيلِ أُمِّ يُوسُفَ إِلَى أَمِيرْكَا، فَشَاءَتْ أُمُّ
يُوسُفَ أَنْ تَسْتَغِلَّ الْفُرْصَةَ وَتَزِيدَ عَدَدَ
الدَّجَاجَاتِ. وَمَعْنَى قَرَقَتْ صَوَّتَتْ، أَيْ
أَعْلَنْتْ بِتَكَرُّرِهَا صَوْتِ «قِرْق...
قِرْق... قِرْق...» أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ
أُمًّا لِفَرَاخٍ كَثِيرَةٍ.



كَانَ لِلدَّجَاجَةِ الرَّصَاصِيَّةِ جَنَاحَانِ
كَبِيرَانِ ، فَجَمَعَتْ لَهَا وَدِيعَةً ، ابْنَةً أُمَّ
يُوسُفَ ، الْبَيْضَ اللَّازِمَ بَعْدَمَا رَاقَبَتْهُ عَلَى
ضَوْءِ الشَّمْسِ ، لِتَجِدَ فِيهِ عَلامَةَ الْخُصْبِ
السَّودَاءِ . وَرَبَّخَتِ الْقِرْقَةَ عِشْرِينَ يَوْمًا
فَوْقَ بَيْضِهَا ، وَوَدِيعَةً تُقِيمُ الْقِرْقَةَ كُلَّ يَوْمٍ
بِحَذَرٍ ، تُطْعِمُهَا وَتَسْقِيهَا وَتَسُدُّ كُلَّ
حَاجَتِهَا ثُمَّ تُعِيدُهَا إِلَى بَيْضِهَا الدَّافِئِ .



وَمِنْ عَادَةِ الْقِرْقَةِ فِي مَرَحَلَةِ تَفْرِيحِ
الْبَيْضِ أَنْ تَحْضُنَ كُلَّ بَيْضِهَا ، فَتُقَدِّمُ
بَعْضَهُ بِمِنْقَارِهَا وَتُؤَخِّرُ بَعْضَهُ الْآخَرَ وَفَقًّا
لِلْحَاجَةِ . وَفِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ عَشَرَ نَزَلَتْ
وَدِيعَةً كَعَادَتِهَا ، فَوَجَدَتْ أَنَّ الْبَيْضَاتِ
أَفْرَخَتْ سِوَى عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْهَا ، فَفَرِحَتْ
وَأَرْتَبَكَتْ وَسَأَلَتْ الْجِيرَانَ عَمَّا يَجِبُ أَنْ
تَفْعَلَ . وَسَاعَدَتْهَا أُمُّ مَسْعُودٍ ، فَأَخْضَرَتْ
بُرْغَلًا نَاعِمًا وَمَاءً وَأَطْعَمَتْ الْفِرَاحَ قَائِلَةً :

« اللَّهُ يُبَارِكُ ! »

غَرِيبٌ أَمْرُ الدَّجَاجَةِ الْمُقْرِقَةِ كَيْفَ
تَكُونُ هَادِئَةً غَيْرَ مُبَالِيَةٍ فَتَتَحَوَّلُ دَجَاجَةً
شَرِسَةً تُدَافِعُ عَنْ فِرَاحِهَا بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ !
كَانَتْ أُمُّ يَوْسُفَ تُسَمِّيهَا « شَرَشُوحَةً »
الْقُنَّ، وَإِذْ بِرُوحِ الْأُمُومَةِ تَهَبُّ فِيهَا فَتُحَوَّلُهَا
كُتْلَةً مِنْ حُبٍّ وَعُغْفٍ. أَرْبَعُونَ يَوْمًا أَنْقَضَتْ
وَوَدِيعَةُ تُلَاحِقُ كُلَّ صَوْصٍ بِمُفْرَدِهِ خَوْفًا
مِنَ التَّقْصِيرِ وَحِفَاطًا عَلَى أَمَانَةِ أُمِّهَا.
صَارَتْ كُلُّ الصَّيْصَانِ تَعْرِفُهَا وَتُحِبُّهَا
وَتَسْعَى إِلَيْهَا، بَعْدَمَا تَرَكَّتْهَا الدَّجَاجَةُ
الْأُمُّ وَعَادَتْ إِلَى رَفِيقَاتِهَا الدَّجَاجَاتِ،
مُطْمَئِنَّةً إِلَى أَنَّ وَدِيعَةَ سَتَحُلُّ مَحَلَّهَا. أَمَّا
وَدِيعَةُ، فَرَاخَتْ تُرَاقِبُهَا كَمَا قَالَتْ لَهَا أُمُّ

مَسْعُودٍ، فَلَعَلَّهَا تَرْغَبُ مِنْ جَدِيدٍ فِي
« التَّقْرِيقِ » وَتَفْقِيسِ الْبَيْضِ وَصُنْعِ الْحَيَاةِ.
كَانَتْ تَجَرِبَةً مَشُوقَةً فِي حَيَاةٍ وَدِيعَةٍ.
إِقْتَرَبَتْ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَبِخَاصَّةٍ
مِنَ الطُّيُورِ. فَهَمَّتْ بَعْضَ أَسْرَارِهَا وَأَثْنَتْ
عَلَى مَظَاهِرِ الْحَنَانِ عِنْدَ الْأُمِّ الَّتِي تُعَلِّمُ
صَيِّصَانَهَا كَيْفَ تَأْكُلُ وَكَيْفَ تَطِيرُ وَكَيْفَ
تُوَاجِهُ الْمَصِيرَ. وَالَّذِي تَكْرَهُهُ وَدِيعَةُ عِنْدَ
بَعْضِ الْحَيَوَانِ كَالْعَقَّاقِ أَوْ الْقَعَّاقِ، كَمَا
يُسَمُّونَهُ، تَرُكُ الْفِرَاحَ بِلَا طَعَامٍ
وَالْإِنْطِبَاعَ بِالْخِيَانَةِ وَالْخُبْثِ. وَقَدْ
حَفِظَتْ فِي مَدْرَسَتِهَا شِعْرًا عَنِ الْعَقَّاقِ
لَا تَنْسَاهُ:



إِذَا بَارَكَ اللَّهُ فِي طَائِفَةٍ
فَلَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْعَقَقِ

طَوِيلُ الذَّنَابِ قَصِيرُ الْجَنَاحِ

مَتَى مَا يَجِدُ غَفْلَةً يَسْرِقُ

يُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ فِي رَأْسِهِ

كَأَنَّهُمَا قَطْرَتَا زُبُّوقٍ

وَحَيَاةُ الدَّجَاجِ ، كَمَا رَأَتْ ، لَا تَخْلُو

مِنْ صِرَاعٍ ، فَلَا أَقْوَى يَنْتَصِرُ دَائِمًا . وَقَدْ

تَتَعَاوَنُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الدَّجَاجِ

عَلَى نَقْرِ رَأْسٍ رَفِيقَةٍ لَهَا ،

فَتَحْفِرُهُ كَمَا يُحْفَرُ الْخَشَبُ

بِلَا رَحْمَةٍ ، وَلَا تُقْلَعُ عَنْهَا ،

أَيَّامًا ، حَتَّى تَقْتُلَهَا بَعْدَ أَنْ تَمْلَأَ

رَأْسَهَا نُقْرًا مُسْتَدِيرَةً رَاحِبَةً .



وَوَدِيعَةٌ لَا تُطِيقُ دِيكًا نَقَارًا يَتَزَعَّمُ

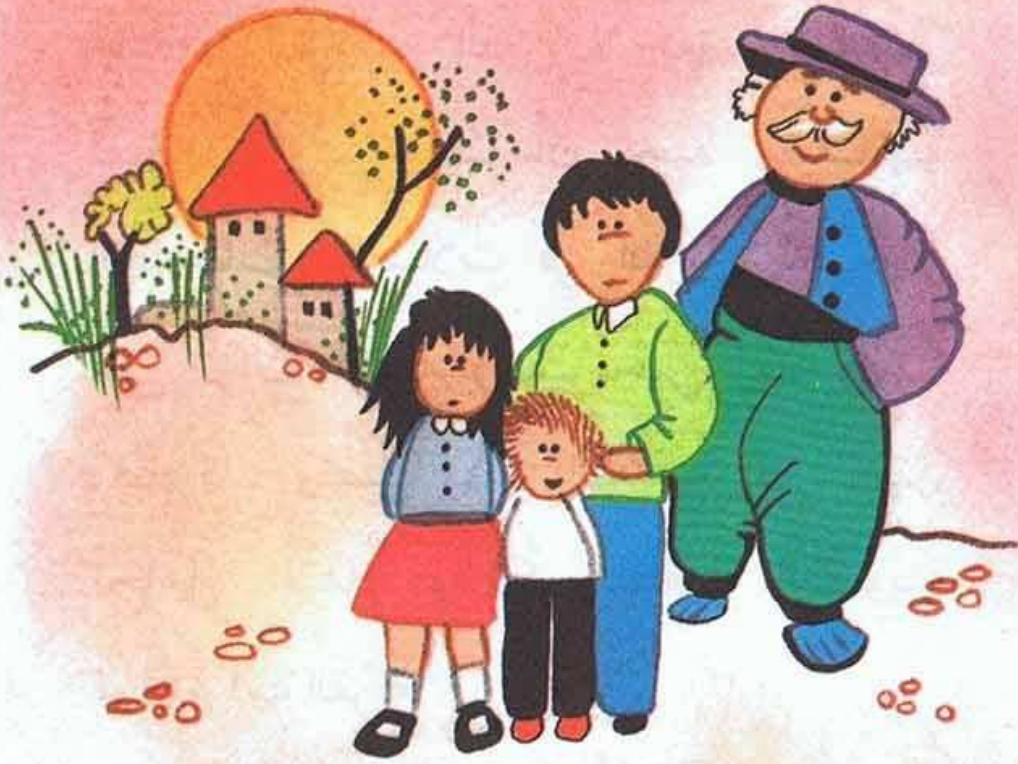
دَجَاجَاتِهَا . فَبِعَدَمِ اكْتِشَافِ كِبَرِيَاءِهِ

وَحِقْدِهِ قَرَّرَتْ أَنْ تَذْبَحَهُ ، لَكِنَّهَا

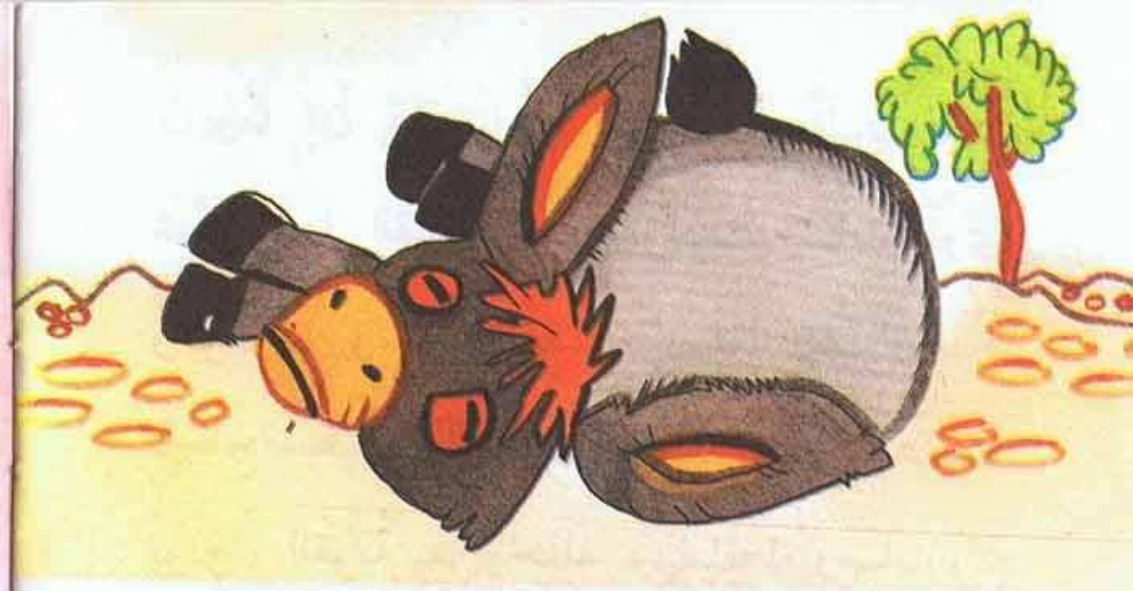
أَنْتَظَرْتُ اتِّصَالًا مِنْ أُمِّهَا لِتَشْرَحَ لَهَا شُؤُونَ
الدَّجَاجَاتِ وَشُجُونَهَا، وَلِتُوضِحَ لَهَا نِيَّتَهَا
حِيَالَ الدَّيِّكِ الْقَاسِيِ الْقَلْبِ.

لَقَدْ وَصَلْتُ أَخْبَارُ الْقِرْقَةِ الرَّصَاصِيَّةِ
إِلَى لَوْسٍ أَنْجَلُوسٍ، فَيَا لَهَا مِنْ أَخْبَارٍ عَنْ
رِفِينَا تُفْرِحُ قُلُوبَ الْمُهَاجِرِينَ! فَقَدْ نَقَلْتُ
آلَةَ التَّصْوِيرِ صُورًا لِلْقِرْقَةِ وَصِيصَانِهَا،
كَمَا نَقَلْتُ صُورًا لَوُدِيعةٍ تَحُلُّ مَحَلَّ أُمِّهَا
فِي خِدْمَةِ أَبِيهَا وَمَنْ لَمْ يَتَزَوَّجْ مِنْ
إِخْوَتِهَا. وَكَانَتْ أُمُّهَا قَدْ أَجَلَّتْ سَفَرَهَا
لِتَزَوَّجَ ابْنَهَا عَمَادًا الَّذِي أَلَحَّ عَلَى بَقَائِهَا،
فَزَوَّجَتْهُ وَرَقَصَتْ فِي عُرْسِهِ وَهَلَلَتْ،
وَسَافَرَتْ مُرْتَاحَةً الْبَالِ.

وَمَا إِنْ غَابَتْ أُمُّ يَوْسُفَ، مِنْ غَيْرِ
شَرٍّ، عَنِ الْقَرْيَةِ حَتَّى زَادَتْ بَنَاتُ آوَى
وَعَوَاعِيَتِهَا وَمُحَاوَلَاتِهَا لِصَيْدِ مَا تَبَقَّى مِنْ
دَجَاجٍ. فَبَيْنَ الثَّعَالِبِ ثَعْلَبٌ صَيُودٌ عَنِيدٌ
تُؤَلِّلُ الْقَرْيَةَ مِنْ حَيْلِهِ وَوَثْبَاتِهِ! وَمَا زَرَغَ
إِلَّا الْغَصَّةُ فِي قُلُوبِ الْقَرَوِيِّينَ، فَكُلَّ
الَّذِينَ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ النَّارَ خَابَتْ أَحْلَامُهُمْ
وَعَجَزُوا عَنِ اللَّحَاقِ بِهِ، فَقَرَّرُوا
مُطَارَدَتَهُ، مَعَ هُبُوطِ اللَّيْلِ فِي مَغَارَةٍ تَبْعُدُ
قَلِيلًا عَنِ الْبُيُوتِ. وَقَدْ قَدَّمَ بَعْضُ الَّذِينَ
أَخْفَقُوا فِي قَتْلِهِ جَائِزَةً مَالِيَّةً لِمَنْ يَقْضِي
عَلَيْهِ وَيُرِيحُ الْقَرْيَةَ، فَلَجَأَ أَحَدُهُمْ إِلَى



وما جَعَلَ وديعة فتاةً كريمةً ومُحترمةً
أنَّها جامعيَّةٌ مُثَقَّفةٌ ولا تُظهِرُ أيَّ كَراهيةٍ
نحوَ القريةِ وعاداتها ونَمَطِ الحياةِ فيها
وأذواقِ ناسِها وأَساليبِ تَعامُلِهِم وَعَيشِهِم.
وَهِيَ لا تَرُمِي كَلِماتٍ فَرَنسِيَّةً في وُجوه



حِمَارٍ أَشْبَعَهُ سُمًّا ورماءُ في حَقْلِ قَرِيبٍ.
وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ كَانَتْ جُثُّ الشَّعَالِ بِحَوْلِهِ
مِثْلَ التُّرَابِ فَاسْتَرَاخَ بِأُلْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ
وَمِنْهُمْ وديعةٌ الَّتِي لَمْ يَخْسِرِ الْقَنْ رِيشَةً
وَاحِدَةً خِلَالَ أَهْتِمَامِهَا بِدَجَاجَاتِ الْبَيْتِ.



جِيرَانِهَا الْقَرَوِيِّينَ الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ غَيْرَ
لَهْجَتِهِمْ، وَيُزْعِجُهَا أَنْ تَجِدَ رَفِيقَاتِهَا
الْجَامِعِيَّاتِ، الْقَلِيلَاتِ فِي الْقَرْيَةِ، يَخْرُجْنَ
عَلَى تَرَاثِ الْقَرْيَةِ وَيَتَفَرَّنَجْنَ زِيًّا وَلُغَةً
وَسُلُوكًا، وَتَصِلُ بِهِنَّ الصَّنْعَةُ إِلَى حَدٍّ
تَجَاهُلُ الْأَهْلُ وَالتَّنَكُّرُ لِلطُّفُولَةِ الْعَفْوِيَّةِ
فَوْقَ تَرَابِ الْقَرْيَةِ.

غَدَاً، عِنْدَمَا تَعُودُ أُمُّ يَوْسُفَ مِنْ
أَمِيرْكََا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، تَجِدُ بَيْتَهَا يَضْحَكُ
وَأَرْضَهَا تَنْتَعِشُ وَدَجَاجَاتِهَا تَتَنَقَّلُ بِحُرِّيَّةٍ
بَيْنَ الْجَلَالِيِّ. فَيَا أُمَّ يَوْسُفَ لَا تُطِيلِي
الْغِيَابَ لِأَنَّ السَّفَرَ قِطْعَةً مِنْ عَذَابٍ!

سِلْسَلَةٌ: «حِكَايَاتٌ مِنْ جِبَالِنَا»

دَجَاجَاتُ أُمِّ يَوْسُفَ

د. ربيعة أبي فاضل



مَكْتَبَةُ سَمِيرَ